الفصل الثاني

الطفل والطفولة علميّا

الفصل الثاني

الطفل والطفولة .. علميا

كما سبق القول فإن مرحلة الطفولة تمثل مرحلة مهمة من حياة الفرد؛ لأنه يتم فيها بناء عناصر كثيرة من شخصيته، وهي كذلك تمثل مرحلة مهمة في حياة الأمة.. أية أمة، وخصوصا وقد علمنا أن الأطفال يمثلون نحو ٤٠٪ من عدد السكان في المتوسط في المجتمعات النامية خاصة.

ويهمنا في دراستنا هذه والتي تتعلق بتأثير وسائل الإعلام على ثقافة الطفل في الخليج العربي أن نحدد مرحلة الطفولة التي سنتعامل معها، فهي تبدأ مع مرحلة المهد (أي بعد سن سنتين) وهي تشمل مرحلتي الطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة، والتي يقول عنها بعض علماء النفس إنها تمتد من نهاية السنة الثانية وتصل حتى بداية النضج الجنسي[١].

وتتميز الطفولة المبكرة بأنها انتقال بالطفل من فترة أو مرحلة العجز والاعتماد على الغير إلى الاستقلال التدريجي، ومن بيئة المنزل الضيقة إلى بيئة المدرسة الرحبة، في نهاية المرحلة، حيث تؤدي الضغوط والتوقعات الثقافية الجديدة إلى تغيرات مهمة في سلوك الطفل، وفي اتجاهاته وميوله وقيمه فيصبح شخصاً مختلفاً عما كان عليه[٢].

(١) محمد جميل محمد يوسف، فاروق سيد عبد السلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة، مكتبة تهامة، جدة، ١٤٠١هـ، ص٣١١.

(٢) المرجع السابق.

الطفولة المبكرة وخصائصها(*):

١- هي سن ما قبل المدرسة:

فهي المرحلة التي تسبق دخول المدرسة وتُعد لها، حيث توجد ضغوط اجتماعية ثقافية لتعلم الطفل، ولكنها تختلف كثيراً عما هو متوقع منه بعد دخول المدرسة.

٢- هي مرحلة ما قبل تكوين جماعات الرفاق:

هذه المرحلة في نظر علماء النفس مرحلة تسبق تكوين جماعات الرفاق، أو الوقت الذي يتعلم الطفل فيه أسس السلوك الاجتماعي، والاستعداد للحياة الاجتماعية المنظمة التي عليه أن يتكيف معها عندما يلتحق بها بدخوله الصف الأول الدراسي.

٣- مرحلة استكشاف:

الطفولة المبكرة مرحلة من حياة الفرد تتميز بمحاولة التحكم في البيئة، فتحكم الطفل في حركات جسمه خلال العامين الأولين يساعده على استكشاف البيئة، فهو يريد أن يعرف ما هية هذه البيئة، وكيف تشعر، وكيف يمكن أن يكون جزءاً منها، ويتضمن ذلك الناس والأشياء المحيطة به.

٤- سن مليء بالمشكلات:

أكثر المشكلات التي يواجهها الآباء مع أطفالهم تدور حول الرعاية

(*) هناك من يقسم مرحلة الطفولة إلى ثلاثة أقسام (مبكرة - متوسطة - متأخرة)، ولكنها تشتمل على نفس الفترة العمرية المحددة للطفولة (٢-١٢ سنة) أي بعد طفولة المهد وقبل بدء المراهقة، ويمكن في هذا المجال مراجعة الكتيب الخاص بذلك والذي أصدرته الإدارة العامة للتعليم بالمنطقة الغربية بالمملكة العربية السعودية بعنوان: رعاية الطفولة، وكان إصداره بمناسبة العام الدولي للطفل (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

الجسمية، فيواجه الوالدان كثيراً من المشكلات السلوكية، مثل ميلاد الطفل الذي يحاول أن يظهر شخصية متطورة متميزة يحاول بها الاستقلال عنهم، ولكنه كثيراً ما يفشل، وكثيراً ما يتميز الطفل الصغير بالعناد والتشبث برأيه وعدم الطاعة والسلبية والمعاداة، كما ينفجر كثيراً في ثورات من الغضب، وتقلقه الأحلام المزعجة ليلاً، والمخاوف غير المنطقية نهاراً، كما أنه يعاني الغيرة.

وبعامة فإن حياة الطفل والوالدين كثيراً ما تكون بعيدة عن السعادة، فالطفل الطيب الذي يمتثل تماماً لمعايير الكبار وتوقعاتهم، ولكنه لا يعطي الوالدين إلا قليلاً من الاهتمام سيكون مصدراً لكثير من المتاعب.

٥- مرحلة أقل جاذبية:

فعلى الرغم من أن اهتمام الوالدين وحبهم لأطفالهم في كل الأعمار فإن الاهتمام الأسري بالطفل يصبح أقل اتساما بالحنان منه خلال مرحلة المهد، فعجز الطفل في مرحلة المهد يجعله جذاباً في نظر والديه وإخوته الكبار، ولكنه الآن قد أصبح كثير المقاومة والعناد، ولا يحب منهم المساعدة، بل يوجد لديه ميل لرفض الظاهرة المختلفة لحبهم، وقد توجد هناك نواح شكلية إلى جانب ما سبق تساعد على التقليل من جانب الأطفال في هذه السن[١].

ويقول الباحثان السابقان: إن من أهم متطلبات النمو في مرحلة الطفولة المبكرة «وضع أسس قيام ضمير يوجه سلوك الصواب والخطأ؛ فالضمير يعمل دافعا له على عمل ما يعرف أنه صحيح وتجنب ما يعرف أنه خطأ عندما

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٣١٢ - ٣١٣.

يكبر في العمر ويصبح ضميره بديلاً للأب كرقيب عليه»[١].

وسوف نعود لمناقشة هذه النقطة مع سابقاتها حين نفصل علاقة كل ذلك بوسائل الإعلام، وخصوصا التليفزيون الذي يؤثر على الأطفال في هذه المرحلة تأثيراً كبيراً.

كذلك سوف نرى موقف هذا الطفل مما يشاهد على الشاشة الفضية، وخصوصا أنه يستطيع في هذه المرحلة «أن يوضح الفرق بين السلوك الطيب والسلوك الرديء، وأن هذا التمييز يعتمد على ما إذا كان الشيء أو الواقعة تسبب اللذة أو الألم، ويعتمد أيضاً على ما إذا كان هذا الشيء أو الواقعة أمراً يشجع عليه المجتمع أو ينهى عنه ويحرمه»[٢] وسوف نرى، إن شاء الله، أن هذا الكلام الذي يتعلق بمعايير الجماعة أو المجتمع سوف يربك الطفل ويحيِّره؛ لأنه يرى نماذج معيارية أخرى للسلوك، وذلك من خلال ما يشاهد على شاشة التليفزيون من برامج مستوردة من مجتمعات أخرى تختلف في قيمها ومعاييرها ومثلها عن كل ما هو موجود لدى الأطفال في مجتمعاتنا العربية عامة، والخليجية على وجه الخصوص.

ثم إن طفل هذه المرحلة - الطفولة المبكرة - تؤثر فيه وسائل الإعلام في مجال النمو اللغوي، حيث يقول «ماكارثي Macarthy» إن الإذاعة والتليفزيون وغيرهما من وسائل الإعلام تتيح إثارة وتنبيهاً لغويا أكثر وأفضل مما يساعد في النمو اللغوي[٣].

الطفولة المتأخرة وخصائصها:

وهذه المرحلة تمتد من سن السادسة إلى الوقت الذي يصبح فيه الفرد

(١) المرجع السابق، ص٣١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣٠.

ناضجاً جنسيا، وتبدأ هذه المرحلة بدخول الطفل المدرسة الابتدائية التي تعد حدثاً مهما في حياته، كما أنها مسؤولة عن كثير من التغييرات التي تحدث في اتجاهاته وسلوكه، وتحدث خلال العام أو العامين الأخيرين من هذه المرحلة تغيرات جسمية ملحوظة تعمل بدورها على إحداث تغيرات في الاتجاهات والسلوك[١].

تسمى هذه المرحلة تسميات مختلفة، فالمربون يطلقون عليها مرحلة المدرسة البتدائية، أي الوقت الذي يتوقع للطفل فيه أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية، ويتعلم أوليات المعرفة التي تعد أساسية للتوافق الناجم في حياة البالغين، وتعلم المهارات الأساسية، سواء من خلال مناهج المدرسة أو من خلال أنواع النشاط الخارجة عن المناهج التي تقدمها المدرسة.

أما الآباء فينظرون إلى الطفولة المتأخرة على أنها سن النشاط الزائد، والسن الذي يعتقد فيه الطفل أنه يعرف كل شيء، ولا يتردد في أن يخبر الآخرين بتفوقه المعرفي، ويؤدي به ذلك إلى المقاومة والتمرد على القواعد من جهة، ومن جهة أخرى نجده يطلب كثيراً من الاستقلال مما يتيحه له والداه، ويرى الآباء أيضاً هذه المرحلة على أنها سن عدم النظافة؛ لأن الطفل فيها يتباهي بقذارة ملابسة ومظهره إهمالهما (!!).

أما بالنسبة لعلماء النفس فمرحلة الطفولة المتأخرة تمثل سن «العصبة» ففي هذه السن يصبح تقبل الطفل بين أقرانه واعترافهم به كعضو في الجماعة محوراً لاهتماماته، ويؤدي به هذا الاهتمام إلى التطابق في مظهره وحديثه وسلوكه مع الجماعة لكي تقبله. وقد أطلق بعض علماء النفس على الطفولة المتأخرة مصطلح «مرحلة عبور الموانع Moran Hurdle» والتي على الطفل أن يتخطاها إذا ما كان عليه أن يتوافق مع حياة البالغين. وتعد الاندفاعية والنظرة القصيرة السطحية - المميزتان للشخص الأبله - من صفات طفل

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٣.

هذه المرحلة، فكثيراً ما يعدم الرؤية عما يحيط به، ويعمل في إطار اللحظة التي يعيشها وباندفاع . . بصرف النظر عن النتائج[١].

كذلك يؤكد الباحثان يوسف وعبد السلام على أهمية وسائل الإعلام، وخصوصا الراديو والتليفزيون في زيادة محصول الأطفال في هذه المرحلة - من اللغة بالإضافة - طبعاً- إلى الاشتراك في المناقشات العامة للأسرة[٢]. ورغم أن الأطفال قد يتحدثون عن أي شيء فإن أحاديثهم المفضلة عندما يكونون مع أقرانهم تتكون من أمور تدور حول خبراتهم الشخصية، وعن منازلهم وأسرهم وألعابهم الرياضية، وكذا عن السينما وبرامج التليفزيون، وعن أنشطة جماعتهم[٣].

هذا ويفضل الأطفال، حتى سن المراهقة، مشاهدة التليفزيون عن الاستماع إلى الراديو. ويقضي أطفال المستويات الاقتصادية الدنيا والأطفال الصغار وقتاً أطول في مشاهدة التليفزيون . . وقد بين «فيرتام Wertham» (١٩٦٢م) أثر مشاهدة التليفزيون على القسوة والعدوان قائلاً: «إن النتيجة الحتمية هي تشويه الاتجاهات الطبيعية حيال القسوة والعدوان والعنف، ويظهر ذلك واضحاً في سلوك الأفراد الظاهر، وفي خيالاتهم وأحلامهم، كذلك تحدث تغيرات في الشخصية تتصل بتقليل الكف أو تغير في عتبة المقاومة لكل أنواع التأثيرات الضارة. إن تأثير وسائل الإعلام الضارة تعد عاملاً أساسيا من العوامل التي تسهم في اضطرابات الشباب»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٨٢.

(٤) المرجع السابق، ص٤٠٤.

ويحدثنا «بول مسن» وزملاؤه عن أن الأطفال في سن مدرسة الحضانة (الطفولة المبكرة) أميل إلى تقليد سلوك النماذج (الأشخاص)، بالإضافة إلى الآباء، مثال ذلك أن الأطفال الذين يشاهدون شخصيات التليفزيون وهم يسلكون سلوكاً عدوانيا قد يقلدون الأفعال العدوانية التي شاهدوها، كما أن رؤية شخصيات التليفزيون وهم يسلكون سلوكاً فيه مساعدة وتعاون قد تجعل الأطفال أكثر ميلاً إلى المساعدة والتعاون»[١].

نشأة الضمير:

لعل من أهم الأمور التي تهمنا في قضية «ثقافة الطفل» أن نتعرف موضوع نشأة الضمير عند هذا الطفل؛ لأنه موضوع غاية في الأهمية في إطار التنشئة الاجتماعية للأطفال، وخصوصا في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، وخصوصا - كذلك - في عصر لم يعد الوالدان هما الأساس الوحيد لإكساب الأطفال ذلك الضمير، بعد أن تدخل التليفزيون بينهما وبين أطفالهما فيما يبثه من قيم. . قد تتفق مع ما تؤمن به مجتمعاتنا، وقد تختلف.

يقول أصحاب المرجع السابق إن «سنوات ما قبل المدرسة سنوات لها أهميتها؛ لأن الأطفال خلال هذه السنوات تبدأ عندهم نشأة الضمير، أو الذات العليا؛ ذلك أن الأطفال عن طريق تقمص الوالدين ومحاولة التشبه بهما، يكتسبون ما عند الوالدين من قيم، واتجاهات ومعايير للسلوك، فيتعلمون الطيب أو «الحلال»، والخبيث أو «الحرام»، وفي أكثر الأحيان تكون قيم الوالدين واتجاهاتهم هي ما يسود كذلك في المجتمع من قواعد

(١) بول مسن وآخرون: أسس سيكلوجية الطفولة والمراهقة، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ص ص ٢٦٢-٢٦٣.

ومعايير، ثم يطبق الأطفال هذه المعايير على سلوكهم الخاص، فيشعرون بالإثم والقلق إذا هم لم يتبعوه، بل قد يعاقبون أنفسهم. وحقيقة الأمر أنهم يكتسبون جهازاً داخليا أو ذاتيا للمتابعة يحكم على سلوكهم وينظمه[١].

ونشأة الضمير هذه غالباً ما تتضح في السنة الثانية من عمر الطفل، وهي تتوقف على النشاط المعرفي عنده، ومعنى ذلك أن الطفل بعد أن تزداد قدرته على الفهم والاستيعاب يترتب على ذلك أن تتغير معايير سلوكه، وأن تتجاوز التحريمات البسيطة.. ويبدأ يهتم بالتطبيقات الواسعة للقيم والمعايير الخلقية.. ولكن ينبغي ألا نتوقع التزام الطفل بكل القيم والمعايير التي يراها؛ حيث هناك عوامل تتدخل في ذلك مثل قوة تقمص الوالدين، واحتمال شعور الطفل بالإثم عند مخالفته لمعاييرهما، ولا شك أن علاقة الطفل بوالديه (حب أو ألفة) تحكم هذه العملية.

وضمن قضية الضمير ونشأته هذه يأتي السلوك الخلقي الاجتماعي الذي يتضمن أموراً مثل، الأمانة والكرم والعطف والإيثار (Altruism)، واتباع القواعد والتنظيمات، ومقاومة الإغراء الذي يدعو إلى الفسق والكذب، ومراعاة حقوق الآخرين ومصالحهم. وللوالدين- كما هو المتوقع - تأثير قوي على نشأة السلوك المساير للمجتمع، وهما يوفران القدوة أوالنموذج أو الأسوة للطفل، ولذلك فإنهما إن كانا من النوع السخي الحنون أو العطوف كان الاحتمال قويا في أن الطفل سيلاحظ هذه الخصائص ويعمل على اكتسابها[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤.

ويقول قمبر إنه طبقاً لدراسات بياجيه، التي لا شك في صحتها، فإننا نقسم نمو الطفولة في مجالات ثلاثة: نمو عقلي أو معرفي - نمو سيكلوجي/ اجتماعي - نمو فيزيقي/ حركي. ثم نوجز ما قدمته تجارب بياجيه وغيره من علماء السيكولوجية الحديثة في توضيح خصائص النمو في هذه المجالات الثلاثة، وسنحصر الكلام عن هذه الخصائص في إطار المرحلة العمرية الوسطى. . . والواقع أن السيكولوجيين يقررون وجود هذه المراحل التي يمر بها خط النمو عند الأطفال، ولا يختلفون كثيراً في تحديد أهم خصائصها المميزة، ولكن الاختلاف قد يكمن في تحديد دقيق لهذه المراحل، متى تبدأ كل مرحلة ومتى تنتهي. . فبعضهم يجعل الطفولة الأولى من سن الميلاد إلى نهاية الثانية، وبعضهم يزيدها حتى الثانية والنصف أو حتى الثالثة، ومن ثم يختلفون في بدء المرحلة الثانية للطفولة الوسطى، وينهيها بعضهم بسن الخامسة، وآخرون بسن السادسة وغيرهم بسن السابعة، ولذلك فإن تحديد مرحلة الطفولة الوسطى (٣-٦ سنوات) يبدو أنه تحديد معقول؛ لأنه يتوسط هذه التقديرات الزمنية المختلفة للمراحل، ولا خلاف بعد ذلك في مرحلة الطفولة الثالثة أو المتأخرة أو طفولة المدرسة الأولية و الابتدائية[١].

ويضيف قمبر ملحوظتين طيبتين في مجال النمو، الأولى - عن فايز إسكندر يقول فيها: «إن النمو في مرحلة الطفولة الوسطى ليس إلا استمرارية في النمو، وامتداداً طبيعيا للنمو في المرحلة السابقة، ومن ثم فهو لا يخرج فجأة بشكل مناقض أو متمايز عما كان عليه من قبل، وإن كانت تتناقص سرعته قليلاً بين الثالثة والسادسة، ثم يتناقص أكثر أو بمعنى آخر يبطئ النمو كثيراً، طيلة المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التعليم الابتدائي ليشهد زيادة متسرعة في مرحلة المراهقة»[٢].

(١) محمود قمبر، مرجع سابق، ٥٨.
(٢) المرجع السابق.

ثم ينقل عن مدام منتسوري فكرة أن الأطفال «ينمون في الواقع بمعدل يختلف من طفل لآخر، وأن ذلك المعدل لا يرتبط في أغلب الأحوال بالنمو العمري، فالطفولة ليست دائماً مرحلة زمنية، ولكنها حالة عقلية، وكل طفل يقع في حدود المرحلة العمرية هو كائن فردي متمايز عن غيره. . ذهنيا ونفسيا وجسميا، بل إنه ربما يمتاز في هذه النواحي . . كلها أو بعضها، ولذا يجب أن يقدَّر كل طفل، وأن يقوَّم تبعاً لفريقه في كل مجالات النمو»[1].

(١) المرجع السابق.